الشعر ومنزلته من الإعجاز بين الحال والمقتضى
في مقدمة دلائل الإعجاز

دكتور

مالك حسين الدسوقي النعيرى

عضو هيئة التدريس بكلية

اللغة العربية بالقاهرة

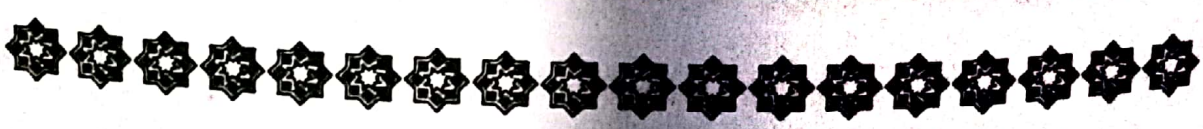

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

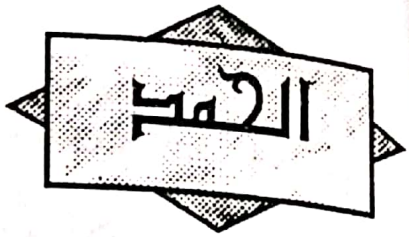

لله الذي رفع قدر العلمـــاء ، وامـــتن علـــيهم بخشيتهم إياه ، وبارك فى عقولهم فبقيت آثارهم ، ودام ذكرهم إلى يومٍ يكون لهم فـــي الجـــزاء أوفاه .

والصلاة والسلام على من زُيّن ببيانه الكلام ، وأذهل بفـــصاحته الأنـــام سيدنا محمد وعلى آله والأصحاب ما لمع سراب ، وهمع سحاب ، وقُرئ كتاب .

وبعـــــد،،،

فإن القرآن الكريم كتاب الله عز وجل ، ورسالة نبيه الكريم ﷺ -أشرف ما صرفت إليه الهمم ، وأعظم ما جال فيه فكر ، ومُدّ به قلم ، كان ومـــا زال معجزة العرب أينما حلوا ، وأسمى ما حملوه إلى الشعوب والأمـــم ، ونبراسا يضئ الشعلة ، وينير طريق الفكر ، والفقه ، والشريعة .

- ومن إعجاز القرآن الكريم أن يظل مورداً تتوارد عليه الأجيال جيلاً بعد جيل ، ثم يبقى أبداً رحب المدى ، سخي المورد ، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمع ، عالياً يفوق طاقة الدارسين والباحثين .

- ومن أسباب حفظ الله رب العالمين لهذا القرآن الكريم أن قَيّض لـــه علماء مخلصين زادت قلوبهم شوقا إلى معرفة أسراره، فكانت كتابـــاتهم فيضاً من الرحمن الرحيم،وفقهاً من عطاء رب العالمين ، ليس هذا فقط ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإنما امتن الله تعالى عليهم بمقدمات لهذه الكتب القيمة هي في الحقيقة إشراقة من هذا النور،مما جعلها ترقى للبحث تارة،وللشرح والتفصيل تارة أخرى .

- ولما كانت مقدمة الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله تعالى - تحمل بين طياتها جذوراً أصلية لما به يتحقق مفهوم الإعجاز عنده تبين لي أن حديثه عن منزلة الشعر من الإعجاز يكفى مؤنة أي باحث يريد أن يضع الحق في نصابه ، ويبرز جانباً مما كان يجول في فكر هذا العالم الجليل فكان موضوع البحث بإذن الله تعالى .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-وقد أردت – بفضل الله تعالى – من ورائه الكشف عن حقيقة الشعر عنده ؛ إذ لم يكن حديثه في هذا الجانب المهم ضربة من غير ضارب ، أو رمية من غير رام ، وإنما كان هذا الرجل ملهما عندما فطن إلى هذه الحقيقة لتظل سلاحاً موجها لكل من تسول له نفسه بهدم هذا الأساس في إدراك إعجاز الذكر الحكيم .

- وقد اقتضت طبيعة البحث هنا أن أسير على المنهج الوصفي التحليلي الذي من أساسياته في مثل هذا البحث بيان وجهة نظر الإمام عبد القاهر ، وصبها في قالب بلاغي تعانق فيه الحال مقتضاها .

-والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يجعله نواة صالحة للنظر في مقدمات علمائنا ، واستظهار ما تحتوى عليه من نفائس ودرر ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، فهو وحده القادر على ذلك والموفق إليه .

﴿ رَبَنَا عَلَيكَ تَوكلّنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

الممتحنة (٤)

أ.د / مالك حسين الدسوقي النعيرى
عضو هيئة التدريس بكلية
اللغة العربية بالقاهرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طبيعة الجيل الذي نزل فيه القرآن الكريم

من المعلوم أن الجيل الذي نزل فيه القرآن الكريم هو أبلغ جيل على الإطلاق ، ويكاد يجمع أهل العلم على أنه قد بلغ من القدرة على الإبانة عن نفسه حداً لم يبلغه جيل من أجيال الأمة في تاريخها كله ، ويكفيه أنه هو الجيل الوحيد الذي صنع للكلمة معرضاً تمثل في أسواق العربية كسوق عكاظ ، والمجنة ، والمجاز . وقد أراد الله سبحانه وتعالى ذلك حتى يتحقق للمعجزة مهابتها وعظمتها ؛ فمع أنهم كانوا متمكنين من نواصي الكلام إلا أنهم وجدوا أنفسهم عند نزول القرآن الكريم أمام أسلوب لا يضارعه أسلوب من كلام البشر (١).

- ولك أن تتصور وضع اللغة في نفوس العرب آنذاك ، وما فُطروا عليه من سليقة عربية أصيلة أرادها الله سبحانه وتعالى أرضاً لهذا الإعجاز ، وتلك المعجزة العقلية التي فاق تعبيرها كل حدود التعبير البشرى .

تأمل ذلك في الغليم الصغير : كعب بن زهير الشاعر المخضرم الذي تكلم بالشعر في وقت لا يستطيع أقرانه فى زماننا الإبانة عن أنفسهم فيه ، فخاف والده من قوله الشعر في مثل هذه السن المبكرة خشية أن يجرى الشعر على لسانه قبل أن يستحكم فيه ويتقنه ، ومعلوم أن زهيرا من

(١) الإعجاز البلاغي د/ محمد أبو موسى ١٥ مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعراء الحوليات ، وتربيته لولده أن يكون كذلك ، فنهاه عن قول الشعر نهيا شديداً ، مرة بالضرب ، ومرة بالحبس حتى بلغه ولوع ولده بالشعر ، واستحواذه على عقله وقلبه فأراد زهير أن يعلم ما عند ولده فدعاه وأردفه خلفه على ناقته ، وخرج إلى الصحراء ، وأنشد زهير :

إني لتعديني على الهَمّ جسرة **تَخُبّ بِوَصّالٍ صرومٍ وتُعنِقُ**

- ثم ضرب كعبا على كتفه ، وقال أجز يا لكع : يعنى : أكمل ، فقال كعب متبعا نفس الوزن والقافية ، ومكملاً للمعنى الذي بدأه والده:

كَبُنْيانةِ القرئي موضعُ رحلها **وآثارُ نِسْعَيْهَا من الدُفّ أبْلَقُ**

فقال زهير :

على لاَحبٍ مثل المَجَرَّةِ خِلْتُه **إذَا مَا عَلاَ نَشْزاً من الأرض مُهْرَقُ**

ثم قال لولده أجز يالكع ، فقال كعب :

مُنِيرُ هداه لَيْلُه كـــــنَهَارِهِ **جَمِيعٌ إذا يَعْلُو الحُزُونَةَ أفْرَقُ**

- فأراد زهير أن يعجزهُ فابتدأ فى نعت النعام ، وترك الإبل يتعسفه عمدا حتى يعلم ما عنده فقال :

وظل بِوَعْسَاءِ الكثيب كـانه **خِبَاءُ على صَقْبَىْ بِوَانٍ[1] مُرَوَّقُ**

---

(١) صقبى بوان : عمود من أعمدة البيت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقال كعب :

تراخى به حُبُّ الضَّحاء وقد رأى سَمَاوَةَ قَشْرَاءَ الوظيفين عَوْهَقُ (١)

هذا هو حال اللغة فى هذا الوقت ، وهذا هو الموقع الجغرافى لنزول القرآن الكريم آنذاك ، ففيه من الرقى مالم تشهده البشرية فى تاريخها كله .

وعند التأمل نجد أن هذه الحال التى كان عليها العرب وقتئذ لم تكن حالا عادية ، بل وجد معها دواعى ظهور معجزة القرآن الكريم بما به ينطق الحق بالحق فى كل زمان ومكان ، بل فى كل نفسٍ من أجيال الزمان ، وهذا هو السر فى أن معجزة سيد الأنبياء سيدنا محمد ﷺ لم تكن حسيه،تقرع الحس، وتستولى على النفوس وقت حدوثها ، كعصا سيدنا موسى ، وناقة سيدنا صالح ، ونار سيدنا إبراهيم – على نبينا وعليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وإنما كانت معجزته ﷺ عقلية ليكون لها مع كل نفسٍ عطاء ، وفى كل زمن رُواد يدخلون فى دين الله أفواجا فنقاشُ العقل معها يجذب القلوب إليها ؛ لأنها غذاء الروح ، ومصدر بقائها ، وسموها ورقيها ، فمن خلالها تنهض ، وبدونها تكبو وتخفق ومن ثم كانت معجزة القرآن الكريم

(١) ينظر الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني ٣٩/١٧ : ٤١ تحقيق عبد الستار أحمد فراج طبعة دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ م ، وشرح ديوان زهير بن أبى سُلمى ٢٥٦ وما بعدها ط دار الكتب ١٣٧٣هـ - ١٩٤٤م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلمة الله تعالى الأخيرة إلى البشر ، وكان حضرة النبى ﷺ خاتم الأنبياء ، فلا وحى بعد رسول الله ﷺ ،ولا رسالة بعد رسالته وقد سجل فى أرض تلك المعجزة وسمائها قول الله تعالى:-

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١)

- وهذا العجز الكامل الذى وقع من هذا الجيل الرائد فى اللغة هو ما أراد الإمام عبد القاهر- رحمه الله- أنه يوجه الأنظار إليه كواقع مشاهدوملموس إلى يوم القيامة،وذلك من خلال حديثه الراقى عن منزلة الشعر ليكون هذا السجل الحافل بالصور ، والديوان العربى المفعم بنبض اللغة آنذاك دليلاً على عجز البشرية كلها عن معارضة الذكر الحكيم .
- تأمل ما ذكره فى ذلك تجد أنه يغنينا عن هذه العناوين البراقة ، وما حفلت به مكتبات الأدب من خلال حديثها الطويل عن موقف الإسلام من الشعر ، أو الإسلام والشعر ، أو حديث القرآن الكريم عن الشعر والشعراء .
- وفى رأيى أن المشكلة نابعة عند هؤلاء جميعا من هذه الأبيات الرزيلة أو القلة منها التى تدعو إلى ذلك ، ونسوا أن للكلمة صولتها ، وللسان من خلال الشعر دفاع يعدل - إن لم يفق - زناد السلاح ، وهذا ما فهمه الإمام عبد القاهر - رحمه الله - وفَقِهَهُ

---

(١) فصلت (٥٣)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من حديث القرآن الكريم عن الشعر ، ومن بيانه - ﷺ ، وقدم الأدلة والبراهين على ذلك ، استمع إليه وهو يفند شبهه من ذم الشعر والنحو فيقول :

((وذاك أنا إذا كنا نعلم أن الجهه التى منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت ، وباتت وبهرت ، هى : أن كان على حدّ من الفصاحة تَقْصُر عنه قوى البشر ، ومنتهياً إلى غاية لا يُطْمح إليه بِالفكَر ، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك ، إلا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، والذى لا يُشك أنه كان ميدان القوم إذا تجاروا فى الفصاحة والبيان ، وتنازعوا فيهما قصب الرهان ، ثم بحث عن العلل التى بها كان الصاد عن ذلك صاداً عن أن تعرف حجة الله تعالى ، وكان مَثَلُه مَثَلُ مَنْ يتصدّى للناس فيمنعهم عن أن يحفظوا كتاب الله تعالى ، ويقوموا به ، ويتلوه ، ويُقرئوه ، ويصنع فى الجملة صنيعا يؤدى إلى أن يقل حفاظه ، والقائمون به ، والمقرئون له .....)) (١)

- فالإمام كما ترى يعطى منهجا فى العلم ينبغى أن يُحتَذَى ، وهو التدقيق فى بيان العلة والسبب ليكون من وراء ذلك إرواء غُلّة النفوس ، وطمأنة شغفها فى معرفة ما هى حريصة بالفطرة على معرفته حتى يقع منها موقع برد الماء على الظمأ .

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى تحقيق محمود شاكر ٨ ، ٩ نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن ثم فلا يُذم علمٌ بسبب ما قد يخيل إلى العامة من أنه عديم الفائدة كما جاء فى حديث الإمام قبل هذه الفقرة إذا يقول :-

"أما الشعر فخيل إليها أنه ليس فيه كبير طائل ، وأن ليس إلا ملحة ، أو فكاهة ، أو بكاء منزل ، أو وصف طلل ، أو نعت ناقة أو جمل ، أو إسراف قول فى مدح أو هجاء ، وأنه ليس بشئ تمس الحاجة إليه فى صلاح دين أو دنيا "(١)

- فهو كما ترى يشير من طرف خفى إلى المنهج الذى سار عليه فى الدلائل والأسرار ، والذى يعتمد ليس فقط على بيان المهم . وإنما يسأل عن سبب هذه الأهمية ، ومن أين جاءت ؟

- والقارئ لنتاج الشيخ البلاغى يجدُ تحديداً واضحاً لمعالم هذا المنهج الوصفى التحليلى الذى سلكه فى فهم آراء من سبقوه فى مسألة ما ، ليبين ما فيها من قصور (٢) وأنت واجد هذا بوضوح عند تعليقه على ما ذكره سيبويه – رحمه الله – فى الكتاب حيث قال – وهو يذكر الفاعل والمفعول –: كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ، ويعنيانهم، ولم يذكروا فى ذلك مثالا " (٣)

---

(١) المصدر السابق ٨

(٢) ينظر مدخل إلى البحث البلاغي د/ إبراهيم صلاح الهدهد ،٥ ،٥٢ الطبعة الأولى ١٤٢٥ ـ ٢٠٠٤م .

(٣) الكتاب ١ / ١٤ تحقيق عبد السلام هارون نشر مكتبة الخانجى ١٤٠٨ هـ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- والإمام فى هذا ذو نظرة ثاقبة ؛ لأنه يعيب على النحويين وقوفهم عند ظاهر النص ، دون التعمق فى أغـواره ، والوقـوف على خباياه وأسراره . وهو بذلك يصور مدى إدراك طائفة مـن أهل عصره للبلاغة ، وأنهم يقفون بها عند حـدّ الـسلامة النحوية اللغوية ولا يدركون أن لصياغة الكلام على نحو خاص أسـراراً يجب أن يبحث عنها ، ودقائق ينبغى أن يوقف عليها ؛ ولذلك نذر عبد القاهر – رحمه الله – نفسه لكشف هذه الأسرار وبيان تلـك الدقائق [1]

- تأمل فى جو هذا المنهج الذى أرسى الإمام قواعده ، ما ذكره فى حديثه السابق عن ضرورة معرفة الشعر وحفظه ، والحث علـى دراسته وروايته ، وما كان ذلك منه إلا لأن الشعر هـو الوعـاء الأول الذى صُبّ فيه إعجاز القرآن الكريم ؛ إذ لم تكن تعرف . حجة الله تعالى على خلقه إلا من خلال عجز هؤلاء الفحول عن مجاراته ومعارضته بعد أن جرهم إلى ميدان المعارضة جرا ، وهز كيانهم إلى ذلك هزاً .فكان أن سجدت القلوب أمام هذا البيان الذى لم يكن أبداً موضـعا للمقارنة أو المعارضة . وانتهى الإمام رحمه الله إلـى أن الـصاد عـن معرفة الشعر وتعلمه وروايته كمن يصدّ عن أن تعرف حجة الله تعالى من الوجه الذى ينبغى أن تدرك منه وتعرف . وهو حين يقرر ذلك ينظر إلى

(١) عبد القاهر الجرجانى د /أحمد بدوي ٢٣ ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والنشر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه المرآة الواضحة التى يأخذ منها دليله ، ويجعل من عطائها برهانا على ما يذكره وذلك من قول الله عز وجل :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (١)

- فالصاد عن معرفة الشعر ، إنما يريد أن يبطل دليل الإعجاز الذى عرف من خلاله فضل كلام الله على كلام الخلق ، ومعلوم أن فضل كلام الله تعالى على كلام البشر كفضل الله تعالى على خلقه .

ثم يؤكد الإمام –رحمه الله – ما ذهب إليه ، فيقرر بعد ذلك أن الصاد عن معرفة الشعر الذى هو سبيل معرفة الإعجاز فى كتاب الله عز وجل كالصاد عن كتاب الله عز وجل نفسه ؛ لأنه يمنعنا عن معرفة دليل النبوة ، ويذكر الإمام فى ظل هذا السياق ما تقتضى الحال بيانه مما يطرأ على خاطره من تساؤلات المخاطب ليستقر هذا الأمر فى ضمير المؤمنين فيتنبهوا إلى خطورة هذه القضية التى ظهر أثرها بعد ذلك فى قضية انتحال الشعر الجاهلى ، وعدم ثبوته ، إلى غير هذه التفاهات التى كان الغرض من ورائها هدم هذا الدليل ، وهو استقراء جيد من الإمام ـ رحمه الله عز وجل ـ لما قرره القرآن الكريم فى ذلك ، وصدق الله العظيم فقد قال :

---

(١) إبراهيم (٤)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(١)

- ولذا يقررا الإمام – رحمة الله – أن التعبد بالقرآن الكريم إنما هو فى الحقيقة إبراز لحجته أبد الدهر فيقول:-

((ذاك لأنا لم نُتعبد بتلاوته وحفظه ، والقيام بأداء لفظه على النحو الذى أنزل عليه ، وحراسته من أن يغير ويبدل إلا لتكون الحجة بـه قائمة على وجه الدهر ، تُعْرَف فى كل زمان ، ويُتَوصّل إليها فى كل أوان ، ويكون سبيلها سبيل سائر العلوم التى يرويها الخلف عن السلف ، ويأثُرُها الثانى عن الأول ، فمن حال بيننا وبين ما لـه كان حفظنا إياه ، واجتهادنا فى أن نؤديه ونرعاه ، كان كمن رام أن ينسيناه جملة ، ويذهبه من قلوبنا دفعة، فسواء من منعك الشئ الذى تنتزع منه الشاهد والدليل ، ومن منعك السبيل إلى انتزاع تلك الدلالة ، والاطلاع على تلك الشهادة ، ولا فرق بين من أعدمك الدواء الذى تستشفى به من ذلك ، وتستبقى به حشاشة نفسك ، وبين من أعدمك العلم بأن فيه شفاء ، وأن لك فيه استبقاء (٢) .

- فالإمام – رحمه الله تعالى – واضح الدلالة فى بيان منزلة الشعر من الإعجاز ، فهو بمثابة السبيل إلى ذلك لتظل حجة الله تعـالى

(١) فصلت (٢٦)

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قائمة على خلقة ، وإعجاز القرآن الكريم أبهر وأروع بدليل عجز هذا الجيل الفريد ا الذى هذا بيانه عن معارضته أو مجاراته .

دليل التحدى فى ضوء بيان منزلة الشعر

- من المعلوم أن القرآن الكريم تحدى العرب ،وهم أهل اللغة ، وأرباب الفصاحة ، فلم يستطيعوا الوقوف فى وجه هذا التحدى الذى جاء بصور متعددة ، وأساليب شتى تهز كيان العرب هزاً ، وتجرهم إلى ميدان المعارضة جراً .
- ففى البداية تحداهم بأن يأتوا بحديث مثل القرآن الكريم فعجزوا ، وصدق الله العظيم فقد قال:

﴿ أَم يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ.بَل لَّا يُؤمِنُونَ.فَليَأتُوا بِحَدِيثٍ مِّثلِهِ،إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(١)

- ثم تدرج بهم فى التحدى ، وطالبهم بعشر سور مثل سور القرآن الكريم ، وليكن المعنى مفترى من عند أنفسهم ، وصدق الله العظيم فقد قال :-

﴿ أَم يَقُولُونَ ٱفتَرَاهُ قُل فَأتُوا بِعَشرِ سُوَرٍ مِّثلِهِ ، مُفتَرَيَاتٍ وَٱدعُوا مَنِ ٱستَطَعتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ ﴾ (٢)

---

(١) الطور (٣٣ ـ ٣٤)

(٢)هود (١٣)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- فلما عجزوا عن الإتيان بذلك أطلق لهم العنان ، وطالبهم بسورة واحدة ، وسمح لهم بأن يستعينوا بمن يريدون الاستعانة به ، وصدق الله العظيم فقد قال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١)

- ثم زاد التحدى بأنهم مع فصاحتهم وبلاغتهم لم يفعلوا ، ولن يفعلوا فى المستقبل ، وجاء التعبير بـ "لن" التى تفيد تأبيد النفى ، وهذا هو منتهى التحدى(٢)، وصدق الله العظيم فقد قال :-

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾(٣).

- تأمل هذا التحدى العجيب الذى فتح آفاق المعارضة على أوسع نطاق، وليس هذا فقط ، بل أكد بشدة عدم استطاعتهم ذلك ، لا فى الحاضر القريب ، ولا فى المستقبل البعيد.

- وعندما نستظهر بلاغة هذا الجيل، وننظر إليه من هذه الزاوية المهمة نقول بإنصاف : لوكان لدى بلاغتهم على علوها فى الكيان البشرى جملة رد لإبطال هذا التحدى لَمَا توانوا لحظة

---

(١) يونس (٣٨)

(٢) ينظر الإعجاز البلاغى د/محمد ابو موسى١٧، ١٨، والموجز فى تاريخ البلاغه د / مازن المبارك ٢٦،٢٧

(٣) البقره (٢٣،٢٤)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

واحدة ، والتاريخ الصادق يؤكد ما وسعته صدورهم من حقد وبغض لهذا الدين الحنيف ، وحرصهم الشديد على وأده في مهده ، لكنّ هذا لم يحدث على الرغم من هذا التحدى ، فثبت بذلك عجزهم ، وعجز غيرهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

- وكان الدليل على ذلك ما وقع بين أيدينا من شعر ونثر يدل في المقام الأول على فصاحة فائقة ، وبلاغة لم يشهد الكون مثلها إلا في هذا الجيل الذى سجل القرآن الكريم تفوقه فى لغته ، وعجزه عن مجاراة من بدأ بعض سُوَرِه الكريمة بحروف مقطعة تقول بلسان حالها :

- أمامكم قرآن كريم من رب العالمين تكونت كلماته وجُمَله من نفس ما تنظمون به كلامكم ، فهل من مجيب فكان أن حسم الذكر الحكيم الحُكْم فى هذه القضية بقول الله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ علىٰ أَن يَأتُوا بِمِثلِ هذا القُرءان لا يَأتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كَانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١)

- ولذا يقول أحد المحدثين : " وقد كان للجاهلين فى هذا فضيلةُ تذكر وهى : أنهم لم يغالطوا فى شأن البيان ـ القرآن الكريم ـ ، ولم يكذبوا فيه ، ولم يَرْوِ التاريخ الصادق أن واحداً منهم ، أو نفراً حاولوا المعارضة ، أما ما ينسب إلى مسيلمة الكذاب فقد كان

(١) الإسراء (٨٨)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رجال من بنى جنيفة يقولون : والله إنا لنعلم أنك كاذب ، وإنك لتعلم إنك كاذب ، ولكن كاذب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»(١)

- والعجيب : أن الإمام عبد القاهر – رحمه الله – قد فطن إلى هذه الشبهة وهى عدم حاجتنا إلى الشعر ، وقد علمنا بإعجاز القرآن بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله فقال :

" فإن قال منهم قائل : إنك قد أغفلت فيما رتبت ، فإن لنا طريقا إلى إعجاز القرآن الكريم غير ما قلت ، وهو علمنا بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله ، وتركهم معارضته مع تكرار التحدى عليهم ، وطور التقريع لهم بالعجز عنه ، ولأن الأمر كذلك ، ما قامت به الحجة على العجم قيامها على العرب ، واستوى الناس قاطبة ، فلم يخرج الجاهل بلسان العرب من أن يكون محجوجا بالقرآن الكريم .

- قيل له : خبرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص سيدنا محمد ﷺ بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر ، أتعرف له معنى غير أن لايزال البرهان منه لائحاً معرضاً لكل من أراد العلم به ، وطلب الوصول إليه ، والحجة فيه وبه ظاهرة لمن أرادها ، والعلم بها ممكنا لمن التمسه ؟

- فإذا كنت لاتشك فى أن لامعنى لبقاء المعجزة بالقرآن الكريم إلا أن الوصف الذى له كان معجزاً قائم فيه أبدا ، وأن الطريق إلى العلم به موجود ، والوصول إليه ممكن ، فانظر أىّ رجل تكون إذا أنت

(١) ينظر الإعجاز البلاغيّ د/ محمد ابو موسى ١٨

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

زهدت فى أن تعرف حجة الله تعالى ، وآثرت فيه الجهل على العلم ، وعدم الاستبانة على وجودها ، وكان التقليد فيها أحب إليك ، والتعويل على علم غيرك آثر لديك ، فَنَحِّ الهوى عنك ، وراجع عقلك ، واصدق نفسك ، يبِن لك فحش الغلط فيما رأيت ، وقبح الخطأ فى الذى توهمت ، وهل رأيت رأياً أعجز ، واختياراً أقبح ممّن كره أن تُعرف حجة الله تعالى من الجهة التى إذا عُرفت منها كانت أنور وأبهر ، وأقوى وأقهر ، وآثر ألا يقوى سلطانها على الشرك كل القوة ، ولا تعلو على الكفر كل العلو – والله المستعان.(١)

- فهنا كما ترى تقرير واضح بأهمية الشعر فى ميدان الإعجاز دوماً حتى تدرك حجة الله تعالى من الجهة التى أرادها الله سبحانه وتعالى لظهور معجزته ﷺ وعلوها على كل ندٍّ ونظير ،كما هى سنة الله عز وجل فى خلقة ، وصدق الله العظيم فقد قال :-

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (٢) .

فما دخل من دخل فى الإسلام يومئذ ، وإلى قيام الساعة إلا بعدما وجد تفوقا ملحوظاً بين كلام الله تعالى وكلام المخلوق.تفوقاً جعل أعداء القرآن يشهدون له بالتميز- والحق ما شهدت به الأعداء-ولا أدل على

(١)دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ٩ ،١٠

(٢)إبراهيم (٤)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذلك من تلك الشهادة الحقة التى نطق بها زعيم القوم ، وكبير العشيرة ، وقائد العرب فى الفصاحة والبيان يومئذ ، وذلك بعد تأمل دقيق، وفكر دءوب لا يبحث فى حقيقتة إلا عن العيوب أياً كانت فكان أن سجل له التاريخ الصادق هذا التأمل العجيب الذى يعتبر شهادة صدق من عدو لدود سجل القرآن الكريم له تدبره الذى لولا الكبروالعناد لاهتدى به إلى الحق و الصواب فماذا قال ؟

- قال فى وجوه الشرك يومئذ ، وهو مشرك " تقولون إنّ محمدا شاعر فهل رأيتموه يقول شعراً قط ؟ وتقولون إنه كاهن،فهل رأيتموه يتكهن قط؟والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ،ولا يستطيعه بشر!! إن له لحلاوة،وإن عليه لطلاوة،وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يَعلُو ولا يُعلَى عليه[1] .

- ونحن عندما نقرأ هذه الشهادة التى صدرت من أعداء القرآن نقول:ليت المسلمين يتدبرون القرآن كما تدبره الوليد، لقد تدبره وهو كافر فقال فيه ما قال ، ولو تدبره المسلمون الآن بهذه العين فى ثوب الإيمان لانقادت الدنيا كلها لجلال القرآن .

(١)السيره النبويه لابن هشام ١٠٥/٢، دار الجيل بيروت لبنان ، الطبعه الاولى ١٤١١ه ، وقضية اللفظ والمعنى وآثرها فى تدوين البلاغه العربيه د / على محمد العمارى ٩٣. الطبعه الاولى ١٩٩٩م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إن الوليد بهذا التدبر كاد أن يسلم لولا إرادة الله عز وجل. ثم عناده وكبره لما تدارك قوله حين قالوا له : صبأ والله الوليد . فضاع منه معنى التدبر ، وضاعت نفسه بعدما كاد أن يجدها فاراد أن يرضى القوم بافتراء الكفر ، وعناد الشرك فكان أن سجل له القرآن الكريم هذا الحوار الجرئ مع النفس الذى يُصوّر بشاعة مسلكه ، وخطورة جرمه ، وصدق الله العظيم فقد قال :-

﴿ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِأَيَاتِنَا عَنِيداً .سَأُرهِقُهُ صَعُوداً . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ .ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدبَرَ وَاستَكبَرَ. فَقَالَ إِن هَذَآ إِلاَّ سِحرٌ يُؤثَرُ . إِن هَذَآ إِلاَّ قَولُ البَشَرِ ﴾ (١)

- فما أروع هذا التصور ، وما أرقى هذا التحليل فى إبراز بشاعة هذا الجرم ، وخطورة هذا المسلك ؛ إنه دليل صدق على إعجاز الذكر الحكيم .

تفنيد دعاوى من ذم الشعر

- لم يكتف الإمام عبد القاهر بالتأكيد على أهمية وجود الشعر فى ميدان الإعجاز ، بل عرج على تفنيد دعاوى من ذم الشعر بطريق الإقناع الذى يتناسب مع جلال المقام حتى يدرك الجميع خطورة القضية ، وأنها من الأهمية بمكان . فقال عمن زهد فى رواية

(١)المدثر (١٦ ـ ٢٥)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشعر ، وحفظة ، وذم الاشتغال بعلمه وتتبعه بِأَنَّ ذَمَّـهُ للـشعر يحتمل واحداً من ثلاثة أمور !

١-أمر يرجع إلى معنى الشعر .

٢-أمر يرجع إلى مبنى الشعر .

٣-أمر يرجع إلى قائل الشعر نفسه .

- وفى هذا يقول الإمام عبد القاهر - رحمه الله - :

لايخلو من كان هذا رأيه من أمور :-

أحدها : أن يكون رفضه له ، وذمه إياه من أجل ما يجده من هزل ، و سخف ، وهجاء وسب ، وكذب وباطل على الجملة .

والثانى : أن يذمه لأنه موزون مقفى ، ويرى هـذا بمجـرده عيبـا يقتضى الزهد فيه ، والتنزه عنه .

والثالث : أن يتعلق بأحوال الشعراء ، وأنها غير جميلة فى الأكثر ، ويقول : قد ذُمَّوا فى التنزيل (١)

- أليست هذه هى كل الاحتمالات القائمة فى ذهن من ذم الـشعر ؟ بلى والله ، وكأن الإمام بذلك يقرأ من بعيد ما يكن أعداء الإسلام من محاولات للنيل منه ، أو الكيد له .

- والمتأمل فى كتاب دلائل الإعجاز يتلمس دائما سبب تأليفه وهو: ما أقره الإمام قبل حديثه عن الشعر ومكانته من الإعجاز ، حيث

(١) دلائل الإعجاز (١١)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لاحظ اختلاط كثير من المفاهيم البلاغية ، فتاقت نفسه إلى وضع الأشياء فى مواضعها ، وبيان ما يشكل ، وحلّ ما ينعقد (١)

وذلك فى قوله :-

((ثم إن التوق إلى أن تقر الأمور قرارها ، وتوضع الأشياء موضعها ، والنزاع إلى بيان ما يشكل ، وحل ما ينعقد والكشف عما يخفى ....

- فإذا أخذنا ما من أجله كان تأليف كتاب الدلائل لوجدنا أن الإمام هنا حريص على وضع الأمور فى نصابها الصحيح ، ووضع الشعر فى مقامه من الإعجاز ، ومن ثم كانت شدته - رحمه الله - فى الرد على مزاعم هؤلاء جميعاً بقوله :

- وأىّ كان مَنْ هذه رأيا له ، فهو فى ذلك على خطأ ظاهر ، وغلط فاحش ، وعلى خلاف ما يوجبه القياس والنظر ، وبالضدّ مما جاء به الأثر ، وصح به الخبر "

- هكذا أظهر الإمام خطأ كل هذه المزاعم جملة ، وفى رأيه أن إطلاق الحكم جملة فى هذه القضايا الخطيرة لا يكفى ، وإنما لابد من دعمها بالبينة والدليل ، وهذا هو منهج الشيخ -رحمه الله -.

- وسوف نتناول إن ساء الله تعالى فى هذا السياق رد الشيخ بالبينة والدليل عاى هذه الافتراءت التى ماراد مؤيدوها إلا الكيد للإسلام بنقض

---

(١) مدخل إلى البحث البلاغى د/ إبراهيم الهدهد ١٩٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدليل الذى يثبت من خلاله إعجاز القرآن الكريم ، وأنى لهم ذلك ؟! والله تكفل رب العالمين بحفظ كتابه وبيانه ، وصدق الله العظيم فقد قال :

" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"(١)

ـ ومن إعجاز رب العالمين فى ذلك : أنه وفق من ارتضاه من المؤمنين لخدمة هذا الكتاب المجيد .

والعجيب فى ذلك انه سبحانه وتعالى جند من الكفار من يخدم هذا الدين بكل وسائل التقدم والتكنولوجيا الحديثه ، وهذا فى حد ذاته إعجاز.

تفنيد دعاوى من ذم الشعر من أجل معناه :

"أما من زعم أنّ ذمه له من أجل ما يجد فيه من هزل وسخف وكذب وباطل ، فينبغى أن يذم الكلام كله ، وأن يفضل الخرس على النطق ، والعِىّ على البيان ، فمنثور كلام الناس على كل حال أكثر من منظومه ، والذى زعم أنه ذم الشعر من أجله ، وعاداه بسببه هو فى المنثور أكثر.(١)

فهنا وقفة نقدية يقرؤها الإمام – رحمه الله – من خلال سطور الزمن فيبطل رأى من ذم الشعر لأجل ما احتوى عليه من هزل وسخف ، ويرده بأن هذا العيب عند التحقيق فى منثور الكلام أكثر ، ولو جمع ما قيل من ذلك فى عصر واحد لزاد عما قيل من شعر فى الأزمنة كلها ، وهذا يدل بوضوح على بطلان رأى من ذم الشعر لهذا السبب. ويزيد الإمام الأمر

(١) الحجر ٩

(١)دلائل الإعجاز ٣٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضوحاً بالإكثار من الأدلة حتى يرتدع من هـذا زعمـه فيؤكـد أن راوِ الشعر حاكٍ وليس على الحاكى عيب بدليل أن القرآن الكريم قد حكى كلام الكفار ، ولم ينقص هذا الأمر من جلال القرآن ومهابته . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى : أن المتمثل بالشعر قد يديره إدارة أخرى فيخـرج منه حسنا ، والدليل على ذلك كما قال الإمام عبد القاهر :-

"استشهاد العلماء لغريب القرآن الكريم ، وإعرابه بالأبيات فيها الفحش ، وفيها ذكر الفعل القبيح ، ثم لم يَعِبْهُم ذلك ، إذ كانوا لم يقـصدوا ذلـك الفحش ، ولم يريدوه ، ولم يَرْوُوا الشعر من أجله " (١)

- ويستطرد الإمام فى ذكر الأدلة التى من شأنها تفنيد مزاعم مـن ذموا الشعر لأجل معناه بتمثل الصالحين به ، وذكرهم إيـاه فـى مقامات استدعت توضيح المعنى بالشعر . فيذكر شعر تَمَثَّـل بـه الحسن البصرى –رحمه الله – ويذكر عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه اختار شعراً تمثل به ، والعجيب هنا أن سيدنا عمر لمَّا اختار هَزّ النص هزة أخرج منه شيئا لم يعرفه صاحبه ، وفى هذا يقول الإمام – رحمه الله – : وفى الحديث عن عمر بـن الخطـاب – رضى الله عنه – ذكره المرزبانى فى كتابه بإسناد عن عبد الملك بن عمير أنه قال : أُتِىَ عمر – رضوان الله عليه – بحُلَـلٍ مـن اليمن فأتاه محمد بن جعفر بن أبى طالب ، ومحمد بن أبى بكـر الصديق ، ومحمد بن طلحة بن عبيد الله ، ومحمد بن حاطـب .

---

(١) دلائل الإعجاز (١٣)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فدخل عليه زيد بن ثابت – رضى الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين ، هؤلاء المحمدون بالباب يطلبون الكسوة . فقال : ائذن لهم يا غلام فدعا بحلل ، فأخذ زيد أجودها ، وقال : هـذه لمحمد بن حاطب ، وكانت أمه عنده ، وهى من بنى لؤى ، فقال عمر رضى الله عنه : أيهات أيهات ! وتمثل بشعر عمارة بن الوليد :

أَسَرَّكِ لما صُـرِّعَ القومُ نَشْوَةً ... خُرُوجِيَ منها سَالِماً غيرَ غَـارِمِ
بريئاً كانى قَبْلُ لم أكُ منهم ... وليس الخداع مُرْتَضَى فى التنائمِ

ردها – أى رد الحلة – ثم قال : ائتنى بثوب فألقه على هذه الحلل ، وقال : أدخل يدك فخذ حلة وأنت لا تراها ، فأعطهم . قال عبد الملك ؛ فلم أر قسمة أعدل منها " (١)

– فعمارة بن الوليد قال هذين البيتين ليدفع عن نفسه شرب الخمر ، وحفظهما سيدنا عمر – رضى الله عنه – واستشهد بهما فى حق.

–"فإذن رب هزل صار أداة فى جد،وكلام جرى فى باطل ثم استعين به على حق،كما أنه رب شئ خسيس توصل به إلى شريف بأن ضـرب مثلا فيه،وجعل مثالا له كما قال أبو تمام

واللهُ قَدْ ضَرَبَ الأَقَلَّ لِنُورِه ... مثلاً من المِشْكَاةِ والنبراس (٢) .

(١) المصدر نفسه (١٣ ، ١٤)
(٢) نفس المصدر (١٤)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وبعد ذكر هذه الشواهد يدافع الإمام عن الشعر دفاع الناقد البصير الذى يقف على حيثيات القضية أولا فيفندها جزءًا جزاء ثم يقوم بعد ذلك بإقناع المخالف الذى لا يجد بداً من التسليم فيقول :

- وبعد ، فكيف وضع من الشعر عندك ، وكسبه المقت منك ، أنك وجدت فيه الباطل والكذب ، وبعض مالا يحسن – ولم يرفعه فى نفسك ، ولم يوجب له المحبة من قلبك أن كان فيه الحق والصدق والحكمة ، وفصل الخطاب (١)

- واستتباعا لهذا النهج يعيب الإمام – رحمه الله– على من يذكر السئ ويرفض الحسن ، ويتعلق بالخبيث ، وينسى الطيب ، ويستطيب الشر ، ولا يركن إلى الخير ، فيتساءل فى ظل هذا المقام : كيف يذكر من ذم الشعر الأحاديث التى وردت فى ذمه ، وينسى أو يتناسى الأحاديث التى وردت فى مدحه ، والحث على قوله ، وإنشاده ، وحفظه ، وكأنه بذلك يعطى منهجاً فى البحث ألا وهو : سلامة النفس من الهوى ، وحثها على الإنصاف من ذاتها ، ومناصرة الحق إذا اهتديت إليه دون نظر إلى أنه رأى مخالف ، وامتثال قول الإمام الشافعى – رضى الله عنه – ما ناظرت أحدا

(١) دلائل الإعجاز (١٥)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا قلت : اللهم أجر الحق على قلبه ولسانه – فإن كان الحق معى اتبعنى ، وإن كان الحق معه اتبعته " (١)

– وفى ذلك يقول الإمام عبد القاهر – رحمه الله– :

" نعم ، وكيف رويت :،

" لأن يمتلئ جوف أحدكم ، قيحا ، فيريَهُ ، خير لـــه مـــن أن يمتلئ شعرا" .

ولهجت به ، وتركت قوله ﷺ :

: (إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا " وكيف نسيت أمره ﷺ بقول الشعر ، ووعده إياه عليه الجنة ، وقوله ﷺ لحسان بن ثابت – رضى الله عنه –

" قل وروح القدس معك "وسماعه ﷺ ، له واستنـــشاده ﷺ إيـــاه ، وعلمه ﷺ به ، واستحسانه له ، وارتياحه ﷺ عند سماعه " (٢) .

– وكان يكفى من الإمام – رحمه الله – هذه الإشارة لتقرير ما ذكر عنه ﷺ، ولكنه – كما قلت لا يترك ، قضية من القـــضايا حتـــى يستوفيها فيفصل فى ظلها المجمل ، ويوضح المـــبهم ، ويفـــسر الغامض ، وهو فى هذا كله حريص على تأكيد هـــذا المـــنهج ، والحث عليه فى جميع أبواب العلم ، وبخاصة هذه الدراسات التى

(١) مدخل إلى البحث البلاغى د/ إبراهيم صلاح الهدهد (١٢)
(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر (١٦، ١٧)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تختص بكتاب الله عز وجل ، وإبراز ما فيه من وجوه الإعجاز ، التى بها فاق وعلا كل كلام ، فيقول – رحمه الله :-

" أما أمره ﷺ به فمن المعلوم ضرورة ، وكذلك سماعه إياه ، فقد كان حسان بن ثابت – رضى الله عنه – وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن زهير يمدحونه ، ويسمع منهم ، ويصغى إليهم ، ويأمرهم بالرد على المشركين ، فيقولون فى ذلك ، ويعرضون عليه ﷺ ، وكان ﷺ يذكر بعض ذلك كالذى روى من أنه ﷺ قال لكعب :-

((ماتسى ربك ، وما كان ربك نسياً شعراً قلته " قال : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أنشده يا أبا بكر ، فأنشده أبو بكر – رضوان الله عليه :

زَعمت سَخينةُ أن سَتَغْلبُ رَبَّها ••• ولَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الْغَلاَّبِ (١)

- وأما استنشاده إياه فكثير ، منه ما هو معروف من خبر أمنا عائشة – رضوان الله عليها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول : أبياتك ، فأقول :

---

(١) سخينة : لقب كانت تُعَيّر به قريش ، والسخينة : طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة فى رقته ، وفوق الحساء ، وإنما كانت تؤكل في شدة الدهر ، وغلاء الأسعار ، وهزال الأنعام فعيروا بأكلها . ينظر لسان العرب لابن منظور مادة سخن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارفع ضَعِيفَكَ لا يَحزْبِكَ ضَعْفَهُ ... يوماً فَتُـــدْرِكُه العواقبُ قَدْ نَمىَ
يَجْزِيكَ ، أو يُثنى عليك وإنَّ مَنْ ... أَثْنَىَ عَلَيْكَ بما فَعَلْتَ لقد جزى

قالت : فيقول عليه الصلاة والسلام :

يقول الله تبارك وتعالى لعبد من عبيده : صنع إليك عبدى معروفا فهل شكرته عليه ؟ فيقول : يارب علمت أنه منك فشكرتك عليه ، قـال : فيقول الله عز وجل : لم تشكرنى إذْ لم تشكر من أجريته على يده "[1]

- وأنت تلاحظ هنا أن أمنا عائشة – رضى الله عنها – قد شـاركت حضرة النبى ﷺ فى استنشاد الشعر ، وقبل ذلك بإنشاد الـشعر ، وهذا يعنى حرص الصحابة رضوان الله عليهم – على اسـتبقاء هذه – الوثيقة التى تشهد دوماً بإعجاز الذكر الحكيم .
- ومن المعلوم أن سنة النبى ﷺ تكون بقول أو فعـل أو إقـرار ، ومن ثم فعندما يأمر حضرة النبى ﷺ سيدنا أبا بكر وأمنا عائشة – رضى الله عنها بإنشاء الشعر ، فهذا بالطبع تقرير له ، وأمـر باستبقائه وحفظه .

(١) الأحاديث القدسية ٢ /٢٨٣ ، المجلس الاعلى للشؤن الإسلاميه ، الطابعه العاشره_ ١٤١٨ه _١٩٩٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وأما علمه ﷺ بالشعر .. فقد روى الزبير بن بكار قال : مر سيدنا رسول الله ﷺ ، ومعه سيدنا أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – برجل يقول فى بعض أزقة مكة :

يايها الرجل المُحَوِّلُ رَحْلَهُ ••• هلا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبى ﷺ : يا أبا بكر أهكذا قال الشاعر ؟ قال أبو بكر – رضى الله عنه : لا يا رسول الله ، ولكنه قال :

يا أيها الرجل المحول رحله ••• هلا سألت عن آل عبد مناف

فقال رسول الله ﷺ : هكذا كنا نسمعها [1] .

- فالإمام – رحمه الله – كما ترى يزيد الأمر وضوحا وتأكيداً ، ويقرر ما ذهب إليه من أهمية الشعر فى ميدان الإعجاز.ولخطورة هذه القضية لم يكتف الإمام– رحمه الله– بالرد على من ذم الشعر من أجل معناه عند هذا الحد ، وإنما أضاف إلى كل ما سبق – من أمره ﷺ بالشعر ، واستنشاده إياه :علمهﷺ به، و ارتياحه ﷺ له ، واستحسانه له ، ومن ذلك: حديث كعب بن زهير . فقد روى أن كعبا وأخاه بجيراً خرجا إلى سيدنا رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فأسلم ، وبلغ ذلك كعبا ، فقال فى ذلك شعرا، فأهدر النبى

(١) دلائل الإعجاز (٢١)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ﷺ دمه ، فكتب إليه بجير يأمره أن يُسلم ويُقبل إلى النبى ﷺ ويقول : إن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل منه رسول الله ﷺ وأسقط ما كان قبل ذلك،قال : فقدم كعب وأنشد النبى ﷺ قصيدته المعروفة :

بانت سُعَادُ فقلبي اليوم مَتْبولُ ••• مُتَيَّمُ ، إثرها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

حتى أتى على آخرها ، فلما بلغ مديح سيدنا رسول الله ﷺ :

إن الرسول لنورٌ يستضاء به ••• مُهَنَّدُ مِنْ سيوف الله مسلولُ
فِي فِتْيَةٍ من قُريشٍ قال قَائِلُهم ••• بِبَطْنِ مكة لَمَّا أَسْلَمُوا زُولُوا
زالُوا فما زالَ أنكاسٌ ولا كُشُفٌ ••• عند اللقاء ولا ميلٌ مَعَازِيلُ
لايقعُ الطَّعْنُ إلا فى نُحُورِهم ••• ومَا بِهِمْ عَنْ حِيَاضِ الموت تَهْلِيلُ
شُمُّ العَرَانِينَ أبطالٌ لُبُوسُهُمِ ••• من نَسجِ داودَ فى الهَيْجَا سَرَابِيلُ

أشار رسول الله ﷺ إلى الحِلَق أن اسمعوا ، قال : وكان رسول الله ﷺ يكون من أصحابه مكان المائدة من القوم يتحلقون حلقة دون حلقة ، فيلتفت إلى هؤلاء وإلى هؤلاء (١) .

(١) دلائل الإعجاز (٢٢، ٢٣٠) وينظر ذلك شرح ديوان كعب بن زهير للسكرى وما بعدها دار الكتب المصرية ١٣٦٩ ـ ١٩٥٠م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ففى هذا كله إشارة من طرف خفى إلى مـا أراد الإمـام إثباتـه بالدليل ، ولعل استشهاده بأحاديث سيدنا رسول الله ﷺ إشارة إلى هذا المعنى العظيم الذى أقره الإسلام فى أمر الـشعر ، وهـو : إجادة الشعر لفظا ومعنى ، والارتقاء به إلى درجة يستمر معهـا فهم إعجاز القرآن الكريم حتى قيام الساعة ، ثم إن حضرة النبى ﷺ أمى – ما قرأ ولا كتب ، ولكنه مع ذلك خبير بألوان الكلام كله ، وهو الشخص الوحيد الذى آتاه الله تعالى علم الأولين والأخرين ، وما يرد عنه ﷺ فى هذا المقام كاف لتقرير أهمية الشعر فـى حقل إعجاز القرآن الكريم .

تفنيد دعاوى من ذم الشعر من أجل مبناه

- بعد أن فند الإمام عبد القاهر – رحمه الله – دعاوى من ذم الشعر لأجل معناه عرج إلى تفنيد دعاوى من ذمه لأجل مبناه ، أى : من أجل ما احتوى عليه نظمه من وزن وقافية ، حتى كأن هذاعيبا ، وهو ليس بعيب على الإطلاق ؛ لأنه مخالف لقول العلماء ، ومعاند لما سبق أن عرفناه عن سيدنا رسول الله ﷺ! فقد رأينا إعجابـه صلى الله عليه وسلم به ، وأمره بقوله ، واستنشاده إياه ، إلـى غير ذلك مما يدل على إقرار أفضل حس عربى مرهف تجاه فهم ما به كان وثيقة لإعجاز القرآن الكريم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وفى هذا كفاية لمن أراد يعى حقيقة المعجزة التى فاقت فى تصورها كل حدود التعبير البشرى جملة ، وما كان ذلك إلا بفضل تفوقها تفوقا مطلقا على ما اختص به هذا الجيل من بين أجيال الزمان كله من لغة أراد الله رب العالمين لها – مع علو قدرها ورفعة شأنها – أن تكون لاشئ بجانب تلك المعجزة الخالدة الباهرة .

- وفى هذا يقول الإمام عبد القاهر – رحمه الله – :

" وإن زعم – أى الذى يرد الشعر – أنه ذم الشعر من حيث هو موزون مقفى ، حتى كأن الوزن عيب ، وحتى كأن الكلام إذا نظم نظم الشعر ، اتضع فى نفسه ، وتغيرت حاله ، فقد أبعد ، وقال قولا لايعرف له معنى ، وخالف العلماء فى قولهم : " إنما الشعر كلام فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح " وقد روى ذلك عن النبى ﷺ مرفوعاً .

- فإن زعم أنه إنما كره الوزن ، لأنه سبب لأن يتغنى فى الشعر ويتلهى به ، فإنا إذا كنا لم ندعه إلى الشعر من أجل ذلك ، وإنما دعوناه إلى اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والمنطق الحسن ، والكلام البين ، وإلى حسن التمثيل والاستعارة ، وإلى التلويح والإشارة ، وإلى صنعة تعمد إلى المعنى الخسيس فتشرفه ، وإلى الضئيل فتفخمه ، وإلى النازل فترفعه وإلى الخامل فتنوه به ، وإلى العاطل فتحليه ، وإلى المشكل فتجليه فلا متعلق له علينا بما ذكر ، ولا ضرر علينا فيما أنكر ، فليقل فى الوزن ما يشاء ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وليضعه حيث أراد،فليس يعنينا أمره،ولا هو مرادنا من هذا الذى راجعنا القول فيه"(١)

- وإذا كا مراد الإمام – رحمه الله – كما رأيت من الشعر اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، وصنعة تقوم بالمعنى لتحلق به فى سماء الفقه والفهم على اختلاف مدارك الاستيعاب كلها فقد أجاد فى الرد ، وأفحم المعاند ؛ لأن ذمه للشعر من أجل مبناه كان من أجل عيب واحد ، وهو التغنى به ، وغفل هذا المعاند أن فى الشعر مزايا لاتعد ولا تحصى استرسل الإمام بعضا منها ليأخذ بيده إلى إدراك ما تركه فى ظل فهم ما ذكره ؛ فالشعر بما احتوى عليه من وزن وقافية إنما كان بذلك وعاء للوعظ والحكم ، وأسرع فى تسجيل تاريخ الأمم ، وأبقى للدراسة ، وحفظ المثل .
- وهذا كله رد بالدليل لإقناع المخالف كى يرتدع ، ويهتدى إلى الصواب فى فهم حقيقة الخطاب فى ظل هذا المقام الذى يختص بداية بوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم .
- وأنت واجد هنا ملمحا من ملامح منهج الإمام عبد القاهر – رحمه الله – فى تأليفه ، وهو : التأكيد دائما على ما به يقوم المعنى من مهمة الفهم والوعى ، والبحث الدقيق عن الحجة التى بها يقوم العلم مقام اليقين ، وبخاصة فيما يتصل بقضية الإعجاز التى كانت شغل الإمام الشاغل فى تفكيره وتأليفه .

---

(١)دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ٢٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

علة منعه ﷺ من الشعر وتوجيه الإمام لما تقتضيه الآيه الكريمة من دليل

- بعدما استقر رأى الإمام – رحمه الله – على رفعة شأن الشعر وذلك بما يقدمه من نظم جيد ، وسبك يستدعى حضور البديهية ، واستثمار الخواطر ، وتوظيف المشاعر كلها جعل ذلك كله جوابا لمتعلق إن صحّ هذا التعلق بقوله تعالى :

﴿وَمَاعَلَّمنَاهُ الشِّعرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾ (١)

- وفى هذا يقول الإمام عبد القاهر –رحمه الله – :

"هو الجواب لمتعلق إن تعلق بقوله تعالى :

﴿ وَمَاعَلَّمنَاهُ الشِّعرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ ﴾

- وأراد أن يجعله حجة فى المنع من الشعر ، ومن حفظه وروايته وذالك أنا نعلم أنه صلى الله عليه وسلم لم يمنع الشعر من أجل أن كان قولا فصلا ، وكَلاَماً جَزْلاً ، ومنطقا حسنا ، وبيانا بيّناً ، كيف ؟ وذلك يقتضى أن يكون الله تعالى قد منعه البيان والبلاغة ، وحماه الفصاحة والبراعة ، وجعله لايبلغ مبلغ الشعراء فى حسن العبارة ، وشرف اللفظ وهذا جهلٌ عظيم ، وخلاف لما عرفه البلغاء ، وأجمعوا عليه من أنه ﷺكان أفصح العرب . وإذا بطل

(١)يس (٦٩)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن يكون المنع من أجل هذه المعانى ، وكنّا قد أعلمناه أنا ندعوه إلى الشعر من أجلها ، ونحدوه بطلبه على طلبها كان الاعتراض بالآية محالاً ، والتعلق بها خطلا من الرأى وانحلالا "(١) .

- فالإمام هنا يتجه فى فكره وفهمه لعلة منعه . ﷺ من الشعر إلى حقيقة الإعجاز التى كان من أجلها ظهور معجزة النبى ﷺ على كل الكلام البشرىّ شعرا كان أو نثراً ؛ لأنه إذا قصد منع النبى ﷺ من الشعر جملة فقد تم منعه ﷺ من الفصاحة وهو أصلها . ومُنِع من البلاغة وهو منبعها ، ومالك زمامها ﷺ .

- والإمام عبد القاهر بهذا التوجيه يلتقى مع ما قاله المفسرون فى هذه العلة فقد ذهبوا إلى أن الشعر هو الكلام الموزون المقفى الذى قصد إلى وزنه قصداً أوليا ، وأما من يقصد المعنى فيصدر موزونا مقفى فلا يكون شاعرا بدليل ما جاء فى الذكر الحكيم على أوزان الشعر وهو بعيد كل البعد عن هذا الوصف – تعالى كلام الله عن ذلك علوا كبيراً (٢)

- ومن ثم فإن المنع هنا للقصد (اى قصد الوزن والقافية) دون ماورد عنه ﷺ من أمره بقوله،وسماعه له، واستنشاده إياه

---

(١)دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر (٢٥)

(٢)ينظر مفاتيح الغيب للرازى ١٣ /١٧٥ دار الغد العرب ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م ١٤١٣هـ وروح المعاني للألوسى ١٢/ ٤٦ ،٤٧ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وارتياحه لمعناه،وهذا ما أكدت عليه آيه الشعراء فى قول الله تعالى :-

﴿ والشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ . أَلَم تَرَ أَنَّهُم فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَالا يَفعَلُونَ . إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُواْ مِن بَعدِ مَاظُلِمُواْ وَسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ (١) .

- حيث فُرّق بينه ﷺ و بين الشعراء فى أن المتبعين لهم هم الضالون الذين لايطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف حضرة النبى ﷺ فإنه ﷺ من أول أمره إلى آخره بقى على طريق واحد ، وهو الدعوة إلى الله تعالى ، والترغيب فى الآخرة ، والإعراض عن الدنيا .
- وبعد وصف القرآن الكريم الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة استثنى منهم الموصوفين بأمور أربعة :-

*** أحدها : الإيمان ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾**

*** ثانيها : العمل الصالح ، وهو قوله تعالى ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾**

*** ثالثها : أن يكون شعرهم فى التوحيد ، والنبوة ، ودعوة الخلق إلى الحق ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيرًا ﴾**

(١)الشعراء ٢٢٤ : ٢٢٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

• رابعها : أن لايذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وانتصرُوا مِن بعدِ ماظُلِمُوا﴾[1]

- فالاستثناء هنا يقرر ما ذهب إليه الإمام من أهمية الشعر فى ميدان الإعجاز بما يتميز به من أوصاف قد لاتنطبق فى أكثرها على النثر . هذا بالإضافة إلى أنه كان بمثابة الأرض التى نبت فيها إعجاز القرآن الكريم .

- وهذا ما أكد عليه الإمام – رحمه الله – فى تفنيده شبهه من رد الشعر لالتباس الحسن بالسئ عند طلبه فقال : " فأما قولك : إنك لاتستطيع أن تطلب من الشعر ما لايكره حتى تلتبس بما يكره ، فإنى إذا لم أقصده من أجل ذلك المكروه ، ولم أرده له ، وإنما أردته لأعرف به مكان بلاغة ، وأجعله مثالا فى براعة ، أو أحتج به فى تفسير كتاب وسنه ، وأنظر على نظمه ونظم القرآن الكريم فأرى موضع الإعجاز ، وأقف على الجهة التى منها كان ، وأتبيّن الفصل والفرقان ، فحق هذا التلبس أن لايعتد على ذنبا ، وأن لا أؤاخذ به ، إذ لاتكون مؤاخذة حتى يكون عمدُ إلى أن تواقع المكروه وقصد إليه . وقد تتبع العلماء الشعوذة والسحر ، وعنوا بالتوقف على جيل المموهين ليعرفوا فرق ما بين المعجزة والحيلة فكان ذلك منهم من أعظم البر ، إذا كان الغرض كريما ، والقصد شريفاً [2] .

---

(١) ينظر مفاتيح الغيب للرازى ١٢/ ١٨٠

(٢) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر ٢٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ويزيد الإمام – رحمه الله – الأمر وضوحاً وتأكيدا ليؤكد اللاحق بالسابق – ويستنتج فى ظل ذلك توجيه علة منعه ﷺ من الشعر فيقول :

- هذا ، وإذا نحن رجعنا إلى ما قدمنا من الأخبار ، وما صح من الآثار وجدنا الأمر على خلاف ما ظن هذا السائل ، ورأينا السبيل فى منع النبى ﷺ الوزن ، وأن ينطلق لسانه بالكلام الموزون غير ما ذهبوا إليه ، وذالك أنه لو كان منع تنزيه وكراهة لكان ينبغى أن يكره له سماع الكلام موزونا ، وأن ينزه سمعه عنه ، كما نزه لسانه ، ولكان ﷺ لا يأمر به ، ولا يحث عليه ، وكان الشاعر لايعان على وزن الكلام وصياغته شعراً ، ولا يؤيد فيه بروح القدس .

- وإذا كان هذا كذلك فينبغى أن يعلم أن ليس المنع فى ذلك منع تنزيه وكراهة ، **بل سبيل الوزن فى منعه عليه السلام إياه سبيل الخط حين جعل عليه السلام لايقرأ ولا يكتب ، فى أن لم يكن المنع من أجل كراهة كانت فى الخط بل لأن تكون الحجة أبهر وأقهر ، والدلالة أقوى وأظهر ، ولتكون أفعم للجاحد ، وأقمع للمعاند ، وأرد لطالب الشبهة ، وأمنع من ارتفاع الريبة** (١) .

(١) المصدر الساق (٢٦، ٢٧)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- استنتاج طيب من عقل مفكر يوازن بين الأمور ليكون فى منطقه ما ذكره فى نهاية حديثه من أن تكون الحجة أبهر وأقوى .....!

- إن الإمام فى هذا الاستنتاج يقرر توجيها كريما فى الآية الكريمة وهو أن منعه ﷺ لا يقتضى ذم الشعر جملة ، وإنما ليكون من وراء هذا المنع ما به تكون وثيقة إعجاز القرآن الكريم أقوى وآكد . شأنه فى ذلك شأن منعه من الخط ﷺ ، وأن الخط بهذا المنع ليس معيبا على الإطلاق ، وإنما ليتقرر لدى الجميع أن أمية النبى ﷺ فى حد ذاتها إعجاز ، ولتكون أميته ﷺ شاهد صدق على رسالته ، فما كان النبى ﷺ ليأتى بهذا القرآن من عنده . وهو أمى لايقرأ ولا يكتب .

تفنيد دعاوى من ذم الشعر من أجل قائله

بعد أن فند الإمام عبد القاهر – رحمه الله – دعاوى من ذم الشعر من أجل مبناه ، ومن ذمه من أجل معناه اتجه بعد ذلك لتفنيد دعاوى من ذمه من أجل الشعراء فأكد أن هذا المنطق بعيد عن الصواب لما فيه من ضياع معنى كل ما سبق من أمر النبى ﷺ به ، وإصغائه إليه واستحسانه له فيقول :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

" وأما التعلق بأحوال الشعراء بأنهم قد ذموا فى كتاب الله تعالى فما أرى عاقلا يرضى به أن يجعله حجة فى ذم الشعر وتهجينه ، والمنع من حفظه وروايته ، والعلم بما فيه من بلاغة ، وما يختص به من أدب وحكمة ، ذاك لأنه يلزم على قَوْدِ هذا القول أن يعيب العلماء فى استشهادهم . بشعر امرئ القيس ، وأشعار الجاهلية فى تفسير القرآن الكريم ، وفى غريبه وغريب الحديث ، وكذلك يلزمه أن يدفع سائر ما تقدم ذكره .... هذا ولو كان يسوغ ذم القول من أجل قائله ، وأنه يحمل ذنب الشاعر على الشعر لكان ينبغى أن يخص ولا يعم ، وأن يستثنى فقد قال الله عز وجل :

﴿ .... إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ اللهَ كَثِيرًا ﴾ (١)

ولولا أن القول يجر بعضه بعضا ، وأن الشئ يذكر لدخوله فى القسمة لكان حق هذا ونحوه أن لايتشاغل به "وأن لايعاد ويبدأ فى ذكره "

- فالإمام يشير هنا إلى أن الفكر البلاغى يجتبئ فى كلام البلغاء ، وأن من يعلم طلابه العلم ليس الواجب عليه أن يضع العلم فى رؤسهم ، وإنما يدلهم على استخراج خبايا المعرفة . فمنهج الإمام قائم على تعليم الناس كيفية البحث عن المعرفة ثم إن القرآن الكريم قد استثنى من الشعراء من طاب مسلكه ، وحَسُنَ منطقه فكان الشعر منهم صاحب سالة ، قائد هدف فى رفعة الإسلام والمسلمين ، لأنه قُدّم فى ثوب الإيمان ، وعباءة الإسلام .

(١) الشعراء ٢٢٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ فالاستثناء فى الآية الكريمة جعل الباب مفتوحا ، والفضل متاحا ، بما لايدع مجالا لعاقل ذم الشعراء عاى الجملة ، كيف ؟ ! وقد استثنى القرآن الكريم منهم مابه يكون فضل هذا الفن وتقدير اهله الذين فهموا قدر الكلمة ، وقيمة الخطاب بالشعر .

ـ "ومعلوم ان طبيعة الحياه العربية قبل الاسلام كانت طبيعة ذات صلت خاصة باللغة وبلاغتها وفصاحة بيانها ؛ وذلك انها كانت حياة قائمة على التفاخر والتكاثر بالانساب والاجداد والمآثر والايام . والشعر هو الديوان الذى كانوا يفزعون اليه ليسجلو فيه كل المفاخر ، ولابد للشعر وللشاعر من لغة تفصح وتبين لترفع او تحط ، وتعلى او تضع ، فاللغة اذا سلاح القوم وآلتهم فى ميدان الفخر والشرف(١).

ـ ويكفى الشعراء فضلا تشريف من آمن منهم بقضية الشعر فى الاعجاز بهذه الإضافة العظيمة : شاعر الرسول ﷺ ، او شعراء الرسول ﷺ كحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، وغيرهم .

ـ إن الإمام بهذا الفهم الواعى ، والنقد الصائب يضع الأمور فى نصابها ، والحقائق فى مسارها ، وهذا هو منهجه الذى من اجله كان تاليفه لدلائل الإعجاز الذى ابان عنه فى مقدمته بقوله :

"ثم إن التوق إلى أن تقر ألأمور قرارها ، وتوضع الأشياء فى مواضعها ..."(٢)

---

(١) الموجز فى تاريخ البلاغه د / مازن المبارك ٢٤ ، ٢٥

(٢) دلائل الإعجاز ٣٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ وهو منهج يحمد للإمام ـ رحمه الله ـ فيه تعليم دقيق لحس البحث البلاغي الذى يدرك العلاقه بين المقصد والمضمون ، فما هو فى دلائل الإعجاز ، واسرار البلاغه إلا مُخاض لهذه النيه الصادقه الخالصه التى ماكان فى خلدها إلا خدمة هذا ألكتاب المجيد ، والزود عنه بالوصول الى نتيجة بالإقناع والدليل .

فقد أكد الإمام ـرحمه اللهـ= من خلال هذا الدليل القرآنى الذى إعتمد عليه من لاوعى عنده ولا إدراك سببا لدم الشعر والشعراء جملة= على عكسى مارددوه وروجوا له.

وسواءٌ صدقت نياتهم فى ذلك ام كان وراءها من الخبث والكيد مابه يضيع الشاهد والدليل ، فإن الإمام ـرحمه اللهـ قد قدم لنا منهجا يحتذى ، ونظرة ثاقبه يجب ان تكون نصب عين البحث العلمى الدقيق الذى يحسن الاستنباط بالحجة والبرهان .

ـ والمتصفح لكتاب دلائل الاعجاز يجد أ ن ماتبناه الإمام فى دفاعه عن الشعرقد جاء وكأنه فطري فى سياق حديثه كله عن تلك الدلالات التى أرادها نواة لإعجاز الذكر الحكيم .

ولذا كثر فى الدلائل والاسرار استشهاده بالشعر ، وما ذلك إلا ليؤكد قصور الشعر ـ مع فصاحته وبلاغته ـ عن معالى الذكر الحكيم ، وقد نبه الإمام عبدالقاهر ـرحمه الله ـالى ذلك فى تمهيده لدلائل الاعجاز بعد ماقرر أن ماأراده لايدرك إلا بعد تصور ماقد نوى تدوينه [1] .

(١) دلائل الإعجاز ٤٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ولذا نجده ـرحمه الله ـيؤكد على هذه الدلائل عندما يطرأ له حديث عن الذكر الحكيم ،تأمل تحليله لقوله تعالى :

"وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين"(٢).

فهو يتأمل فيما تجلى من الإعجاز والإبهار فى كل ماترى وتسمع ؛لأن العبرة هنا ليست فى نداء الارض وإنما الإعجاز فيها أنها نوديت فأجابت ، وإلا فقد نادى الشعراء على الأطلال كثيرا دون مجيب ، فيقول :

ومعلوم ان مبدأ العظمه فى أن نوديت ثم امرت ، ثم فى ان كان النداء بيا دون اى ،نحو : ياأيتها الارض ، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: إبلعى الماء،ثم أن أتبع نداء الارض وأمرها بما هو من شانها نداء السماء وامرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل : و" غيض الماء" فجاء الفعل على صيغة : فُعِل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ..."(١)

وعلى هذه الوتيرة سار الإمام ـرحمه الله ـ ليكون ماكتبه وخطه بيده جوابا لخاطر بدا له فى مقدمة هذا الكتاب مما يدل على أن دليل الإعجاز كان فى قلب الرجل ، ونصب عينيه ، نلحظ ذلك فى جوابه عن سؤال طرحه المقام يومئذ هو : ماذا أعجزهم ؟ فكان الجواب :

---

(٢) هود ٤٤

(١) دلائل الإعجاز ٤٥/٤٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه ، وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم انهم تأملوه سورة سورة ، وعشرا عشرا ، وآية آيه فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة ينكر شأنها ، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى أخلق ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما ، وإتقانا وإحكاما ،لم يدع فى نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعى وتقول ، وخذيت القروم فلم تملك أن تصول "(٢).

وهكذا جند الإمام عبدالقاهر ـرحمه الله ـ باستبقاء الشعر أرضا لإعجاز القرآن الكريم ، وحث على دراسته ، واستظهار مايحتوى عليه مما أُودع فيه من اسرار بيانية تضمحل دوما إذا ماأتيح لها أن توضع ـوليس لها ذلك ـبجانب بيان الذكر الحكيم .

(٢) المصدر السابق ٣٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خـــاتـــمة

وبعد هذه الرحلة الطيبية المباركة التى أردنا منها بفضل الله تعالى التركيز على ما ذكره الإمام عبد القاهر فى شأن الشعر ، وكيف فاقت محاولته فى ذلك ما كُتِبَ وأُلِّفَ فى هذا الشأن من عناوين براقة لاتسمن ولا تغنى من جوع ، فقد قرّر الإمام فى لغة راقية مدعومة بالدليل المقنع ضرورة الشعر فى ميدان الإعجاز دوماً ، وأن الصاد عن معرفته كالصاد عن معرفة حجة الله تعالى من الوجه الذى إذا عرفت منه كانت أبهر وأقوى وأقهر.

- كما تأكد لدينا ما يقوم عليه منهج الإمام عبد القاهر – رحمه الله – من استقراء لجزئيات القضية ، ومعالجتها معالجة صادقة فى ظل جميع معطياتها ، وما يتفرع عنها ليصل من وراء ذلك إلى استثمار كل الخصائص التى من شأنها إضاءة الطريق لاستخراج خبايا المعرفة .
- ولا يغيب عن أذهاننا فى ظل هذا المقام : مقدمة الإمام عبد القاهر التى صدرت كتاب دلائل الإعجاز ، والتى تضمنت علما يحتاج إلى فهم ، ومنهجا يحتاج إلى وعى فى تطبيقه والوقوف على معالمه وآدابه ليكون لنا – إن شاء الله تعالى – زاد على الطريق ، وفهم لحقيقة الإعجاز إلى يوم الدين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين ، وأن يجعل به مقامنا فى عليين ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

((وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين))

أ . د / مالك حسين الدسوقى النعيرى
عضو هيئة التدريس بكلية اللغة العربية
بالقاهرة جامعة الأزهر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

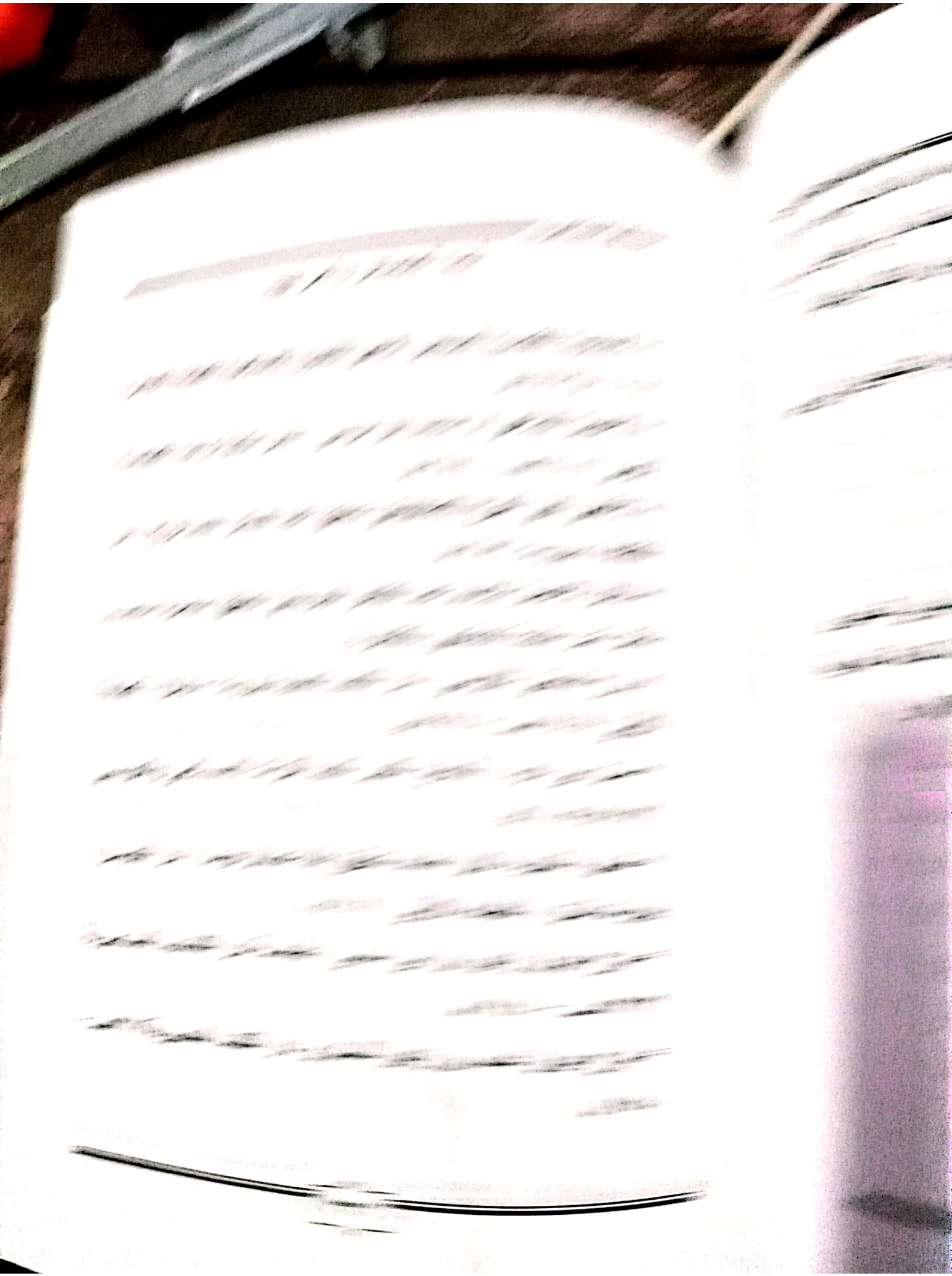

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

= عبد القاهر الجرجانى د/ أحمد بدوى ، وزارة الثقافة القومى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر بدون تاريخ .

= قضية اللفظ والمعنى وأثرها فى تدوين البلاغه العربية الى عهد السكاكى د/على محمد حسن العمارى ، مكتبة وهبه ، الطبعه الأولى ١٤٢٠ه /١٩٩٩م =لسان العرب لابن منظور – دار التب المصرية بدون تاريخ .

= مدخل إلى البحث البلاغى د / إبراهيم صلاح الهدهد ، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م .

= مسند الإمام احمد ، الجامع الكبير لكتب التراث الإسلامى والعربى ١٤٢٦ه/٢٠٠٥م.

= مفاتيح الغيب للرازى ، دار الغد العربى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

= الموجز فى تاريخ البلاغة د / مازن المبارك ،دار الفكر ، بدون تاريخ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفهـــــــرس

م	الموضـــــــوع
١	تقديـــــــــــم
٢	طبيعة الجيل الذى نزل فيه القرآن الكريم
٣	دليل التحدى فى ضوء بيان منزلة الشعر
٤	تفنيـــــد دعـــــاوى من ذم الشعر
٥	تفنيد دعاوى من ذم الشعر من أجل معناه
٦	تفنيد دعاوى من ذم الشعر من أجل مبناه
٧	علة منعه صلى الله عليه وسلم من الشعر
٨	تفنيد دعاوى من ذم الشعر من أجل قائله
٩	خاتمـــــــة البحـــــــث
١٠	ثبت المصـــــادر والمراجـــــع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner